



الطوطمية في المجتمعات الإنسانية

حميدة حسين أحمد العربي

قسم الفلسفة - كلية الآداب بالزاوية

h.alarabi@zu.edu.ly

<https://orcid.org/0009-0002-9423-3165>

Totemism in Human Societies

Hamida Hussein Ahmed Al-Arabi

Department of Philosophy, Faculty of Arts, Zawiya, University of Zawiya

تاريخ الاستلام: 2026/6/29 تاريخ المراجعة 2026/7/20 تاريخ القبول: 2026/7/28 - تاريخ النشر: 2026/8/18

الملخص:

يتناول البحث الطوطمية بوصفها إحدى أقدم الظواهر الدينية والاجتماعية والثقافية في المجتمعات الإنسانية، ويهدف إلى بيان مفهومها، وتتبع نشأتها، وتحليل دورها في تنظيم حياة الجماعات الأولى. ويعرض أبرز التفسيرات التي قدمتها النظريات الاسمية والاجتماعية والنفسية، مع توضيح آراء عدد من علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع، مثل فريزر ودوركهايم وفرويد وليفي شتراوس. كما يناقش القوانين والمحرمات المرتبطة بالطوطم، ومنها تحريم قتله أو أكله، واحترامه بوصفه رمزاً مقدساً للعشيرة. ويبين البحث أن الطوطمية لم تكن مجرد اعتقاد ديني أو خرافة بدائية، بل أدت وظائف مهمة في تحديد الهوية والانتماء، وتنظيم النسب والزواج، وتعزيز التضامن الاجتماعي، وضبط العلاقة بالطبيعة. ويخلص إلى أن الطوطمية مثلت صورة مبكرة من صور التشريع والتنظيم الاجتماعي، ولا تزال بعض آثارها الرمزية حاضرة في الشعارات القبلية والوطنية المعاصرة. الكلمات المفتاحية: الطوطمية، المجتمعات الإنسانية، الهوية، القرابة، التنظيم الاجتماعي.

Abstract:

This study examines totemism as one of the oldest religious, social, and cultural phenomena in human societies. It aims to clarify its concept, trace its origins, and analyze its role in organizing the lives of early communities. It presents the main interpretations proposed by nominalist, sociological, and psychological theories, highlighting the views of anthropologists and sociologists such as Frazer, Durkheim, Freud, and Lévi-Strauss. The study also discusses the laws and taboos associated with the totem, including prohibitions against killing or eating it and the obligation to respect it as a sacred symbol of the clan. It demonstrates that totemism was not merely a religious belief or primitive superstition, but performed significant functions in defining identity and belonging, regulating kinship and marriage, strengthening social solidarity, and governing the relationship with nature. The study concludes that totemism represented an early form of legislation and social organization, whose symbolic traces remain evident in contemporary tribal and national emblems.

Keywords: Totemism, Human Societies, Identity, Kinship, Social Organization.

مقدمة :

تعتبر الطوطمية ظاهرة اجتماعية وثقافية قديمة، بل ومن اقدم الظواهر التي عرفتھا المجتمعات الإنسانية ، وتتمثل في اعتقاد بعض المجتمعات بوجود رابطة خاصة بينهم ، وبين حيوان او نبات او كائن آخر . فالإنسان منذ بدايته كان يبحث عن علامة تميزه وتربطه بجماعته ، الى ان وجد تلك العلامة وهي " الطوطم" الذي اتخذه هويةً وسلفاً مقدساً وحامياً ، فالطوطمية لم تكن مجرد خرافة بدائية انما كانت عند بعض الشعوب اول قانون اجتماعي ، واول نظام قرابة عرفه الانسان ، واول دين ، وبها توحدت العشيرة ، وبها استطاع الانسان ان يفسر علاقته بالكون وبمن حوله . ومما لاشك فيه ان الطوطمية التي درستھا الأنثروبولوجيا وعلم نفس الشعوب احد اقدم الظواهر الدينية ايضاً ، وهي علاقة مقدسة بين جماعة بشرية وكائن طبيعي يكون سلفاً لها . ويهدف هذا البحث الى استجلاء مفهوم الطوطمية وتتبع جذورها في المجتمعات الانسانية الاولى ، وتحليل دورھا في تشكيل البنية الدينية والاخلاقية والاجتماعية منذ القدم . وقد تم تقسيم هذا العمل الى عدة نقاط منها :

اولاً : مفهوم الطوطمية في اللغة والاصطلاح .
— في اللغة : كلمة طوطم ليس لها اصل ولا جذور عربية ، ومصدرھا لغة الالوجيوا (قبيلة الهنود الحمر بأمريكا الشمالية) وتعني علامة العشيرة ، او رمز نسب .
اما في الاصطلاح فقد وجدت عدة تعريفات للفلاسفة :
— جون لونغ: يرى ان الطوطم هو علامة العشيرة ، وان هذه العلامة هي شيء هام وجوهري .
— جيمس فريزر: ان الطوطمية نظام ديني واجتماعي يربط العشيرة بالحيوان او النباتات او أي شيء طبيعي ممنوع قتله او اكله ، لان بينهم وبينه نسب وعليه يجب معاملة الطوطم باحترام خاص وانه من يحاول إيذاؤه او قتله سوف تفرض عليه عقوبات (1).
— اميل دور كهايم : اعتبر ان الطوطمية هي اقدم اشكال الدين ، وان الطوطم ما هو الا رمز لعشيرة او لجماعة وان تقديس هذا الطوطم هو تقديس للمجتمع ووحدته من اجل النظام (2) .
ولعل تفسير دور كهايم من اكثر التفسيرات التي قد تتماشى مع العشيرة .

— هربرت سبنسر : اعتبر ان الطوطم في الاصل ليس الا كنية او لقب لاحد الافراد ، والاصل اجتماعي وتاريخي مرتبط بتقديس الاجداد .

— سيموند فرويد : فقد فسر الطوطمية تفسيراً نفسياً ورأى ان الطوطم هو الاب الرمزي للجماعة ، او العشيرة ، ونادى بعدة محرمات منها تحريم اكله و قتله ، لأنه يجب ان تكون هناك مشاعر حب وخوف ودنّب تجاه هذا الطوطم الذي اعتبره مثل الاب .

— كلود ليفي شتراوس : يرى ان الطوطمية ليست ديناً او مؤسسة مستقلة بحد ذاتها ، بل اعتبرھا اسلوباً عقلياً يستخدمه الانسان لتصنيف العالم وتنظيم العلاقات بين الجماعات ، فالحيوانات والنباتات الطوطمية اعتبرھا رمز للتفريق بين العشائر والقبائل الاجتماعية (3).

يقول سكول كرافت عن هنود امريكا الشمالية ان الطوطم هو في حقيقة الامر تصميم يتماشى مع شعارات النسب لدى الامم المتحضرة ، ويجاز لكل شخص ان يحمل تميزاً له برهان على هوية العائلة التي ينتمي اليھا (4).

يتضح ان الطوطمية في ذلك الوقت لم تكن لم تكن مرحلة تاريخية ، وانه لابد ان تمشي فيها كل الشعوب، مع اختلاف الثقافات من ثقافة الى اخرى .

ثانياً : نشأة الطوطمية:

تعد مسألة نشأة الطوطمية من اكبر المسائل الجدلية في الأنثروبولوجيا ، وهناك عدة نظريات مطروحة حول نشأة الطوطمية وهي :

اولاً: النظرية الاسمائية :

في هذه النظرية كانت حاجة القبائل ملحة لأن تفرق فيما بينها بالأسماء فنتجت طواطم عن شارات الرايات التي اراد بها الافراد تمييز بعضهم عن بعض .

الطوطمية في المجتمعات الإنسانية

فالطوطم : اما ان يكون شعاراً لعشيرة - او اسم عشيرة - او اسم الاجداد الاوائل للعشيرة - وقد يكون اسم التبرجيل للعشيرة ،ولكن فيما بعد رأى بيكلر- ان البشر يحتاجون الى اسماء دائمة ومثبتة خطياً للجماعات والافراد .. لذلك فإن الطوطمية انبثقت عن حاجة يومية واعية لدى البشرية ولم تنبثق عن حاجة دينية .

اد ان جوهر الطوطمية التسمية هو تبعة لفن الكتابة البدائي . ولكن يرى ان بعض المتوحشين حملوا اسم الحيوان ، واستنبطوا من ذلك فكرة القرابة مع هذا الحيوان . اما هربرت سبنسر فقد اعطى للتسمية اهمية خاصة في نشو الطوطمية ، اذ قال : ان بعض الافراد استدعوا الناس من خلال خصائصهم المتميزة الى تسميتهم بأسماء الحيوانات ، وهم بذلك حصلوا على القلب شرف او اسماء شهرة انتقلت الى حلفهم ، وقد فهمت الاجيال اللاحقة هذه الاسماء على انها شهادة انتساب لهذا الحيوان ، ففي ذلك الوقت كانت اللغات البدائية غير واضحة ولا دقيقة ، وعليه فإن الطوطمية فُهمت على انها تبرجيل للأجداد قائم على سوء الفهم .

يتضح ان هذه النظرية لم تفي بالغرض لأنها تفسر ما تسميه قبائل البدائيين بأسماء الحيوانات ولم تفسر مطلقاً الاهمية التي اكتسبتها هذه التسمية بالنسبة لهؤلاء ، أي بمعنى انها لا تفسر النظام الطوطمي . واكثر نظريات هذه المجموعة اهمية هي النظرية التي جاء بها اندرو لانغ ، فهي النظرية التي تمثل جانبين نفسانيين هاميين وانها بهدان الجانبان وجدت الحل النهائي للغز الطوطمية والذي يبدأ من خلال الاسم شيء هام وجوهري ، فاسم الانسان في نظر البدائيين من المكونات الرئيسية لشخصه ، وربما قطعة من داته (5) .

وإذا نظرنا الى تفسير فرويد للطوطمية نجد انه فسرها تفسيراً نفسياً ، ورائ ان الطوطم يمثل الاب الرمزي للجماعة او للعشيرة ، ونادى بعدة محرمات مرتبطة بالطوطم مثل تحريم قتله او اكله ، فهو يرى انه لا بد ان تكون هناك مشاعر حب وخوف ودين تجاه هذا الطوطم الذي اعتبره مثل الاب ، وفي ذات الوقت اعتبر ان المحرمات المرتبطة بالطوطم مثل عدم قتله واكله سوف تؤدي الى صراعات نفسية عميقة .

وما يتضح مما سبق ان الاسم لم يكن امراً هامشياً وتقليدياً كما يبدو لنا .

تانياً : النظريات السوسيولوجية :

لقد عمل رانباخ على تقصي النظام الطوطمي في العبادة والاعراف لفترات طويلة ، لكنه في البداية لم يعر موضوع الانتساب الى الحيوان الطوطم اهتماماً كبيراً ، ورائ ان الطوطمية ليست الا تضخم للغريزة الاجتماعية والاشكال الاولى للحياة الدينية او النظام الطوطمي في استراليا . كما ابدى المؤلف الجديد دوركهايم فالطوطم هو الممثل المرئي للدين الاجتماعي لهذه الشعوب ، وهومن يجسد الجماعة التي هي في الحقيقة موضع التبرجيل ، في ذات الوقت هناك مؤلفون اخرون بحثوا لتعليل اقرب لمشاركة الدوافع الاجتماعية التي تكون المؤسسات الطوطمية ، امثال هيدون الذي يرى ان لكل قبيلة بداية كانت تعيش في الاصل من حيوان او نبات معين ، وقد تكون هذه القبيلة قد مارست به التجارة وتبادلت به مع القبائل الاخرى .

لذلك كان لا بد من ان تُعرف هذه القبيلة عند القبائل الاخرى باسم الحيوان الذي يلعب عندها ذلك الدور ، وايضاً يجب ان تكون لدى هذه القبيلة الفة مع الحيوان المعني وانه يجب الاهتمام به ، الا ان هذه الالفه وهذا الاهتمام لا يقومان على باعث نفسي اخر الا اكثر الحاجات البشرية اولوية والحاحاً وهو باعث الجوع . ومن ثم يأتي الرد على هذه النظريات والتي تعتبر اكثر نظريات الطوطمية عقلانية ، بانه لم يُعتر قط في أي مكان على مثل هذه الحالة من التغذية لدى البدائيين . فالمتوحشون يلتهمون كل شيء لان مستواهم متدنياً وليس مفهوماً ، وعليه لا يمكن ان تتطور من مثل تلك الحمية الغذائية علاقة دينية تقريباً تجاه الطوطم ، وصلت دروتها في الامتناع المطلق عن ذلك الغذاء المفضل (6) .

اما فريزر فقد وضع ثلاث نظريات حول نشو الطوطمية وكانت اولى هذه النظريات نفسانية ، وثاني هذه النظريات نشأت عندما وصف الباحثان سبنسر وغيلن جملة من المؤسسات الاجتماعية والتقاليد والآراء الخاصة لمجموعة من قبائل امة الارونتا وسط استراليا . وقد انظم فريزر الى ان هذه الخصوصيات يمكن ان تقدم توضيحاً حقيقياً للطوطمية ، وقد تمثلت هذه الخصوصيات لدى جزء من امة الارونتا فيما يلي :

— ان تنقسم القبيلة الى عدة عشائر وكل قبيلة لها طوطم خاص فيها ، مثلاً ان يقال قبيلة بنو النسر ،ابنو الثعبان او..... وهكذا . كما ان الطوطم لا ينتقل وراثياً أي انه لا يثورت مثل الاسم او الجينات بالمعنى البيولوجي ، بل هو نسب اجتماعي روعي وحسب قانون القبيلة ، أي ان الفرد لا يختار طوطمه بنفسه والاصح القول ان الطوطم يكون قدراً .

— ليس شرطاً ان كل عشيرة طوطمية تكون محظورة الزواج داخلها ، أي لا تتزوج بنت طوطمك بمعنى اصح (خارجية الزواج) ويتم حصر الزواج من خلال توزيع متطور للناس الى طبقات زواجية ، ويؤكدون على ان الطبقة الزواجية شيء و الطوطم شيء اخر تماماً .

— تقوم وظائف الطوطمية على تأدية طقس هدفه زيادة عدد الحيوان او النبات الذي هو طوطمهم ، مثال على ذلك : ان عشيرة النسر تعمل الطقس من اجل تكاثر النسر فيصيدون منها اكثر ، كذلك عشيرة النباتات مثل القمح يزرعون منها كثيراً وعند نزول المطر يكثر القمح . كما انهم لا يذبحون هذا الحيوان ، ويغنون الاناشيد المقدسة للنسر بالإضافة الى ان كبار السن يقومون بحركات تمثل تكاثر النسر وتزواجها ، وتسمى هذه الطقوس (انتيشيوما) أي التكاثر السحري للطوطم لكي لا ينقرض (7) .

— للارونتا نظرية غريبة في الحمل والبعث ، فعند الارونتا الاستراليين الاصليين لا يوجد شيء اسمه الحيوان المنوي والبويضة ، بل عندهم لا يكون الحمل عن طريق الرجل انما يرجونه بذهاب المرأة بالقرب من صخرة او حفرة او شجرة مقدسة تخص طوطمها تدخلها روح الطفل وان هذه الروح كانت موجودة ونائمة من زمن الاسلاف ، اذن الروح تدخل رحم المرأة والرجل لا علاقة بيولوجية له عندهم ، وعند الموت تعود الروح للمكان الذي خرجت منه (الصخرة او الشجرة او الحفرة) لتنتظر جسد جديد أي لعل امرأة اخرى تذهب الى نفس المكان وتدخلها الروح من جديد . وتكون ارواح المتوفين كذلك المبعوثين مربوطة على تماثم حجرية غريبة موجودة في تلك الاماكن باسم (شورينغا) . هناك ناحيتان دفعتا فريزر الى الاعتقاد بأنه قد عُثِر في مؤسسات ارونتا على اقدم شكل للطوطمية وهم :

— وجود اساطير زعمت ان اسلاف الارونتا تغدوا بانتظام من طوطمهم ، وانهم لم يتزوجوا الا من نساء طوطمهم الخاص .

— الاستبعاد الواضح للفعل الجنسي في نظريتهم عن الحمل . اد البشر لم يدركوا بعد ان التلقيح هو تبعة الاتصال الجنسي . ومن هنا يتضح ان معتبرهم الاكثر تخلفاً وبدائية بين اللذين يعيشون اليوم . لكن فريزر عندما تمسك بطقوس الانتيشيوما حين ابدى رأيه بالطوطمية اد يظهر له النظام الطوطمي مغاير تماماً لأن يكون هذا النظام تنظيم عملي من اجل تأمين اوليات الحاجات البشرية ، فكان النظام ببساطة نظام سحر تعاوني ويمكن القول ان البدائيين ألفو جمعية سحرية للإنتاج والاستهلاك بأن اخدت كل عشيرة طوطمه على عاتقها ان تهتم بتوفير مادة غذائية معينة ، وان تعود منجزات هذه العشيرة بالخير على الجميع ، وبما ان العشيرة لا تأكل من طوطمها ، او لا يحق لها الا ان تأكل منه القليل . فأنها كانت تؤمن هذه المادة الثمينة للآخرين ، وثمرت بالمقابل من قبل العشائر الاخرى بالخيرات التي يفرضها عليها الطوطمي الاجتماعي .

على ضوء ذلك وصل فريزر الى ان طقس الانتيشيوما كما لو ان البدائي قد اعماه خطر الاكل من طوطمه وأهم الجانب الاهم وهو انه يجب تأمين اكبر قدر ممكن من الطوطم الذي يؤكل لحمه لتغطية حاجة الآخرين ، واعتقد فريزر ان هذا التقيد لم يكن ناجماً عن نوع من الاحترام الديني ، بل من ملاحظة انه ليس من عادة الحيوان ان يفترس احداً من نوعه ، او هو ناجم عن السعي الى استمالة هذا الكائن من خلال عدم الاضرار به . ولم يجز فريزر على تبيان طريق تحول عادة الزواج ضمن الطوطم وهي العادة المستقاة من اساطير الارونتا الى الزواج الخارجي ، كما انه لم يخف صعوبات هذا التفسير . اد ان صحة نظرية فريزر تتوقف على الانتيشيوما والاعتراف بالطبيعة البدائية لمؤسسات الارونتا . ولكن هذه النظرية قد لا تصمد امام الاعتراضات المقدمة من قبل دوركهام ولانغ ، فمن المرجح ان قبائل الارونتا اكثر القبائل الاسترالية تطوراً ، وانهم يمثلون طور بداية الطوطمية (8) .

ومن الواضح ان قبائل الارونتا لم يكونوا بدائيين جداً ، وكان عندهم نظام طبقات زواج معقد ، وطقوس انتيشيوما منظمة وقوانين صارمة ومن هذا فهم في قمة تطور الطوطمية في استراليا . بالإضافة الى ان ما قصده دوركهام ان الارونتا لم تكن هي الصورة الاولى للإنسان الطوطمي ، لان عندهم علامات الانحلال للطوطمية القديمة مثل فصل الطوطم عن الزواج أي بمعنى اصبح لديهم طبقات زواج مستقلة عن الطوطم والاصح ان القانون الاجتماعي استقل عن الدين ، وظهرت فكرة الفردية بدلاً من ان تكون مجرد جزء من الطوطم ، واصبح طقس انتيشيوما مسرحية معقدة وليس فعل سحري بسيط . اما الاساطير التي كان لها ذلك التأثير الكبير على فريزر لأنها تعكس المؤسسات السائدة اليوم وتؤكد على حرية الاكل من الطوطم والزواج ضمن الطوطم فتكشف لنا ببساطة على انها تخيلات رغوية جرى اسقاطها على الماضي ، وهي شبيهة بأسطورة العصر الذهبي (9) .

هذه الاسطورة التي ترجع ان الماضي هو زمن الكمال والسعادة المطلقة بلا شقاء ولا قوانين.

ثالثاً: النظريات النفسانية :

قبل ان يطلع فريزر على تقصيات سبنسر و غيللن على الاعتقاد بالنفس الخارجية وضع نظريته الاولى النفسانية ، وبناء على هذه النظرية يمثل الطوطم ملجأ امينا للنفس ، تودع فيه كي تبقى بعيدة عن الاخطار التي تتهددها ، وانه اذا اوى البدائي نفسه في طوطمه فانه سيصبح بعيدا عن الاذى . وبالطبع سيمتنع هو ذاته عن إيذاء حامل نفسه ، وبالرغم انه لا يعلم أي فرد من هذا الحيوان هو الطوطم فسيكون من الطبيعي ان يحافظ على كل نوع .

بعد ذلك تخلى فريزر عن هذا الاستنباط للطوطمية والذي ينص على الاعتقاد بالأنفس . ولكن بعد ما تقصى فريزر عن تقصيات سبنسر و غيللن وضع النظرية الاخرى السوسولوجية الطوطمية ، لكنه بعد ذلك وجد ان الباحث الذي استنبط منه الطوطمية شديد العقلانية ويفترض وجود تنظيم جماعي ، وانه معقد جدا لدرجة لا يمكن للمرء ان يسميه بدائيا ، حينها بدت له المجتمعات التعاونية السحرية على انها ثمار لاحقة اكثر من كونها بدايات للطوطمية ، فاخذ يبحث عن عنصر ايسر منها للكشف عن خرافة بدائية لكي يستخلص منها نشو الطوطمية ، وكان هذا العنصر هو الذي وجده في نظرية الارونتا المعقدة عن الحمل كما وسبق ان اشرنا . ان نظرية الحمل هذه لا تستطيع ان تفسر الطوطمية لان الطوطم سيكون موجود مسبقا ، ولكن تماثل الانسان عندئذ مع طوطمه سيكون معللاً بالفعل من خلال اعتقاد المرأة الحامل كيفية طريقة حملها . ان الانسان المعني سوف يرفض اكل هذا الحيوان لأنه اذا اكل منه يكون كمن يأكل داته على الرغم انه سيجد نفسه مدفوعا في بعض الاحيان بصورة طقوسية كمن يأكل داته او كمن يتمتع من فترة لأخرى بصورة طقوسية بشيء من طوطمه وهو بذلك يقوي تماثله مع الطوطم وهذا هو الاساس في الطوطمية . ولكن التقصيات التي قام بها فريزر عن سكان جزر البنك الاصليين اثبتت التماثل المباشر للبشر مع طوطمهم على اساس مثل هذه النظرية للحمل (10) . فعندما كان المتوحشين يجهلون العملية التي يتكاثر بها البشر والحيوانات ، وجهلهم بالدور الذي يلعبه الذكر في الاخصاب وولادة الطفل واحساس الام بالحركات الاولى للجنين ، سيتضح ان الطوطمية ليست من ابتكار العقل الذكري بل من ابتكار العقل الأنثوي واوهام المرض للمرأة الحامل (الوحام) هو جدور ذلك . وان الام ستعرف انها ستكون اما بالطفل الذي في رحمها ، مثل هذه الاوهام الامومية هي طبيعية وقد تبدو جدور للطوطمية او قد يكون ذلك هو المنبع الاخير للطوطمية . الاعتراض الرئيسي على نظرية فريزر الثالثة هو نفسه الاعتراض على نظريته السوسولوجية الثانية اد يبدو ان الارونتا بعيدون جدا عن بدايات الطوطمية ولا يبدو ان انكارهم للأبوة يقوم على جهل بدائي وهم من جعل في اسطورة الحمل هذه نظرية (11) .

توجد نظرية اخرى نفسانية وضعها الهولندي فيلكن حول مصدر الطوطمية . وتنص على ان الحيوان الذي انتقلت اليه ارواح الاموات حسب الاعتقاد العام ، قريبا بالدم او قد يكون الجد الاول ، وجرى تبجيله بهذا الاعتبار ، أي انها تقيم ارتباطا وثيقا للطوطمية مع تناسخ الارواح ، الا ان الاعتقاد بالتناسخ الحيواني للأرواح يعود الى ان يكون مستنبطاً من الطوطمية اكثر من كون الطوطمية مستنبطة منه . وهناك نظرية اخرى للطوطمية قد تبناها اتنولوجيون امريكيون مثل بوس ، وهيل ، وتوت ، وغيرهما . وتنطلق هذه النظرية من استطلاعات لقبائل هندانية أي القبائل الهندية الحمراء نسبة الى الهنود الحمر ، وهي طوطمية تزعم ان الطوطم بالأصل هو عبارة عن روح حامية لاحد الاسلاف اكتسبها خلال حلم وورثها لخلفه ، ولكن هذا الاستنباط للطوطمية من توريت واحد مفرد يخلف صعوبات بالإضافة الى ان التقصيات الاسترالية لا تدعم ارجاع الطوطم الى روح حاميه .

ونجد في اخر النظريات النفسانية التي عبر عنها تونت شيآن حاسمان وهما

— اولاً : ان اكثر الحيوانات الطوطمية اصالة هي الحيوانات الروحية .

— ثانياً : ان اكثر مواضع الطوطمية اصالة وانتشارا هو الحيوان (12) .

فالحيوانات الروحية مثل العصافير ، والفار ، والحية ، والسحلية ، تصلح بسبب سرعة حركتها او بسبب طيرانها في الجو و بعض خصائصها الاخرى المثيرة للدهشة والرغبة لأن ينظر اليها كحاملة الارواح المفارقة للجسد (13) .

ثالثاً: قوانين الطوطمية :

مند اقدم العصور اراد الانسان ان يفهم علاقته بالعالم من حوله وحاول وضع انظمة تحكم سلوكه مع نفسه ومع غيره ، ومع الطبيعة ، ومن ابرز هذه الانظمة التي ظهرت هو "الطوطمية " التي قامت على مجموعة قوانين اعتبروها في ذلك الوقت صارمة لكي تنتظم حياة القبائل ، وهذه القوانين هي الاطار الذي يضبط علاقة الانسان برمز عشيرته وبأفرادها وبالعشائر الاخرى ، واعتبروا ان هذه القوانين بمثابة دستور اولي لحكم

الطوطمية في المجتمعات الإنسانية

المجتمعات البدائية قبل ظهور الأديان والقوانين الموثقة ، وقد وضع المؤلف الاجتماعي رينخ قانوناً يحتوي على اثنتي عشرة مادة اختصر بها كل ما جاء من تعاليم للطوطمية وهي كالتالي :

– اصحاب هذا المذهب يمتنعون عن قتل بعض الحيوانات او اكل لحومها ، بل وان بعض الاجناس منها تكون موضع اهتمامهم يحترمونها ويقدسونها وتكون هي طوطمهم .

– عند موت حيوان منها تحزن القبيلة بأسرها ويتم دفنه بنفس المكان الذي يدفن به افرادها كما لو كان احداً منهم .

– عند الامتناع عن اكل الطوطم لا يتناول احياناً جميع الحيوان ولكن يمتنع عن بعض اعضائه فقط .

– عندما يجد احد الافراد نفسه مضطراً الى قتل طوطم يعتذر اليه ويعمل كل ما بوسعه كي يخفف من وطأة جريمته .

– عندما يقدم الطوطم كذبيحة فان القبيلة بأسرها سوف تبكي عليه.

– عندما تقام الحفلات الدينية في شتى المناسبات الهامة فان افراد القبيلة سيلبسون جلد طوطمهم .

– في بعض القبائل وبعض الافراد تطلق على نفسها اسم طوطمها الذي يمثل قبيلتها.

– تزين الكثير من القبائل اسلحتها بصور طوطمها ، ويصور بعض الافراد على اجسامهم صور حيوانات ويسمون انفسهم بها .

– عندما يكون الطوطم حيواناً مفترساً يخشون شره فانهم يعتقدون بأن اذاه سيكف عن القبيلة التي تسمى باسمه .

– الحيوان الطوطم يدافع ويحامي عن اصحابه ادا ما وقع عليهم خطر .

– يكشف الحيوان الطوطم لأصحابه عن المستقبل ويكون له دليلاً ، أي انهم كانوا يربطون حركة الحيوان بقراءة رموز للطبيعة لكي تُطمئن الانسان ، مثلاً لو ان الطوطم كان نسر وطار لأعلى فسيكون في مستقبلك علو ، ولو كان ثعبان ودخل الى بيتك فسيكون هناك خطر قادم اليك.... وهكذا .

– تؤمن افراد القبيلة الطوطمية بحدود نسب يربطها بطوطمها وبانها هي و الطوطم من اصل واحد (14) .

يتضح من ذلك ان قوانين الطوطمية لم تكن مجرد طقوس دينية ، انما هي نظاماً اجتماعياً متكامل ، بل ويعتبر اول قانون للإنسان في تنظيم علاقاته الاجتماعية ، وتنظيم حياته ، وتنظيم علاقته بالطبيعة وضبط العلاقات داخل القبيلة وبين القبائل ، اذن فهي تماسك للمجتمعات البدائية .

رابعاً : دور الطوطمية في تنظيم المجتمع :

تعتبر الطوطمية عند البدائيين وبعض الفلاسفة ديانة عشائرية ، وحيث تكون هذه العشائر تكون عشائر طوطمية ، وحيث تكون الطوطمية يكون المجتمع منظماً على نحو عشائري ، ولكن المرجح ان هذا الاستنتاج قد يكون خاطئاً لان هناك اقوام ذات عشائر ولا طوطم لديها وهناك اقوام لها طوطم وليس لها عشائر (15) .

الطوطم هو في ذات الوقت رمز الاله ورمز المجتمع ، لان الله والمجتمع عندهم رمز واحد بعينه ، وان الاله العشرة المبدأ الطوطمي قد لا يكون بالتالي الا العشرة نفسها مشخصة ومرتسمة في المخيلة بموجب شكل الحيوان او النبات المرئي الذي يُتخذ طوطماً ، أي ان ابناء العشرة الواحدة يعبرون بالرموز الطوطمية عن وحدتهم ونظامهم وعن ارتباطهم ببعض بل بجماعتهم بأسرها . والناس يتواصلون عن طريق رمز او اية وان الطوطم هو الذي يلعب هذا الدور ، فكل قبيلة تعبر عن وحدتها وطابعها الخاص ونظامها الفريد بشعارها الطوطمي سواء كان حيوان او نبات او أي رمز تتفق عليه القبيلة . وما يجب على الانسان ان يفهم العلاقة بين الطوطم ومجتمعه وبين طقوس وطواطم الاقوام الاخرى المجاورة من اجل فهم طقوسها (16) .

وتوجد الهة العشائر التي تمثل نوعاً من الطوطمة ، وان هذه الكائنات هي العليا وتتصف بالعدالة والسمو والارتفاع والقوة والهيمنة على أنشطة العديد من الكائنات ، وان هذه الالهة تعتبر هي الجد الاول للقبيلة وينظر اليها في تقديس ، بل وفي بعض القبائل مثل قبيلة الدنكا ، وقبيلة التان اعتُبر انهم محاطون بقوى ارواح وكائنات عليا مقدسة مسيطرة ويعملون على استرضائها بتقديم القرابين والضحايا ، وان هذه الالهة لديها القدرة في الكشف عن الصدق والغش وازيف والخداع ، بل وتعتبر مسؤولة عن نشر العدالة بين الناس وتنظيم المجتمع (17) .

هذا وبالنظر الى سكان استراليا الاصليون كانت العشائر مرتبطة بطواطم موروثة حيوانا كانت او كائنا طبيعياً ، وهذا الطوطم هو الذي يحدد الانتماء والالتزامات الاجتماعية وتنظيمها . وفي بعض الجماعات الافريقية كانت اشهر نظم الطوطمية عند شعب الزيمبابوي ولم تكن الطوطمية مقتصرة على وجود الطوطم فقط انما كانت له وظائف ، فمثلاً قبيلة الشونا كانت وظيفة الطوطم تحديد الانتماء العشائري ، ومنع الزواج بين افراد الطوطم الواحد ، وتميز الاصل والنسب ، واستخدموا اسماء الطواطم في الطقوس الاجتماعية . وفي كندا والولايات المتحدة كان لديهم نظام عشائري بان يتخذ العشائر اسماء حيوانات طوطمية ، وكانت هذه العشائر

تنظم الوظائف السياسية والاجتماعية داخل المجتمع ، لان الطوطمية لم تكن مجرد عبادة للحيوان بل نظام اجتماعي وديني يربط الهوية والقرابة والزواج والعلاقة بالطبيعة في هذه المجتمعات (18) .
الطوطم ايدا لم يكن مرتبطا بالأرض والمكان فيسكن ابناء الطوطم الواحد منفصلين عن بعضهم ويعيشون بسلام اسوة مع اتباع الطواطم الاخرى من اجل تنظيم العلاقة الاجتماعية (19) .

يتضح ان الطوطمية لم تكن مجرد معتقد ديني او رمز فقط انما كانت هي حجر الاساس الذي بنى عليه الانسان البدائي مجتمعه ، فقد نظمت النسب ، وضبطت الزواج ، وحمت البيئة ، ورسخت روح التضامن بين افراد العشيرة ، وعليه فقد كانت الطوطمية اول قانون اجتماعي عرفه الانسان ، فربطه بأرضه وبرمزه وبأخيه الانسان ، والاهم انه كان ينظم حياة الانسان والمجتمع بأكمله .
الخاتمة :

من كل ما سبق يمكننا استخلاص النتائج الاتية :
- الطوطمية نظام اجتماعي قبل ان يكون دين ، فكانت القاعدة الاولى التي نظمت العلاقات بين الافراد والعشائر ، وضبطت الزواج والنسب والالتزامات المتبادلة بين القبائل ، وعليه فهي عبارة عن نظام اجتماعي ثقافي متكامل .
- فرضت الطوطمية مجرمات على صيد الطوطم واكله مما ساهم في حماية الانواع النباتية و الحيوانية وحافظ على التوازن البيئي في المجتمع البدائي وكان لها دور كبير في حفظ البيئة .
- مصدر للهوية والانتماء ، أي ان افراد العشيرة منحوا الطوطم شعورا بالوحدة والانتماء ، وميزوا كل جماعة عن غيرها برمز مقدس مشترك ليكون مصدرا للهوية والانتماء .
- تمثل قوانين الطوطمية بدايات اولى للتشريع منها انبثقت لاحقا القوانين والاعراف الدينية والاجتماعية ، أي انها بدرة التشريع والقانون .
- رغم اختفاء الطوطمية الكلاسيكية الا ان اثارها باقية في الشعارات القبلية ،اسماء الفرق تختار حيوان او شيء قوي كرمز لها او شعار وطني مقدس .
التوصيات :
توصي الباحثة بالاتي :

- ضرورة دراسة الطوطمية دراسة انتروبولوجية محايدة بعيدة عن نظرة البدائية باعتبارها مرحلة مهمة في تطور الفكر الانساني ، وادخال دروسها في مناهج الاجتماعيات لفهم كيفية نشأة القوانين والاخلاق والانتماء لدى الانسان ، كما يمكن الاستفادة من مبدأ " تقديس الطبيعة" الموجودة في الطوطمية في حملات التوعية البيئية والمحافظة على التنوع الحيوي اليوم .
- دعم الشعوب التي لاتزال تحتفظ ببعض الممارسات الطوطمية وتوثيقها قبل اندثارها للمحافظة على تراث الشعوب الاصلية ، اجراء المزيد من البحوث المقارنة والدراسات لمقارنة الطوطمية لدى شعوب مختلفة لاستنباط القوانين العامة لتطور المجتمعات الانسانية .

هوامش البحث ومصادره :

- 1- يوسف شلحت ، نحو نظرية جديدة في علم الاجتماع الديني " الطوطمية ، اليهودية ، النصرانية ، الاسلام " ، تحقيق : خليل احمد خليل ، ط 1 ، دار الفارابي ، شركة المطبوعات اللبنانية ، 2003 ، ص 121 .
- 2- المرجع نفسه ، ص 129، 128 .
- 3- المرجع نفسه ، ص
- 4- اميل دور كهائم ، الاشكال الاولى للحياة الدينية " المنظومة الطوطمية في استراليا" ترجمة : رنده رفعت ، ط 1 ، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2019 ، ص 156 .
- 5- اندرو لانغ ، سر الطوطم ، ترجمة : مصطفى ابراهيم فهمي ، دار المعارف ، صدر 1905 ، نشر 1961 ، ص 34 .
- 6- سيفموند فرويد ، الطوطم والتابو ، ترجمة بو علي ياسين ، ط 1 ، دار الحوار والنشر والتوزيع ، سوريا ، اللاذقية ، 1983 ، ص 137 .
- 7- المرجع نفسه ، ص 138 .
- 8- جيمس جورج فريزر ، الطوطمية والزواج الخارجي ، المجلد الرابع ، ترجمة احمد ابو زيد ، 1910 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ص 50 ، 51 .
- 9- سيفموند فرويد ، مرجع سبق ذكره ، ص 139 .
- 10- اميل دوركهائم ، مرجع سبق ذكره ، ص 140 .
- 11- سيفموند فرويد ، مرجع سبق ذكره ، ص 141 — 143 .
- 12- جيمس جورج فريزر ، مرجع سبق ذكره ، المجلد الثاني ، ص 89 ، المجلد الرابع ، ص 59 .

- 13- سيفموند فرويد ، مرجع سبق ذكره ، ص 144 .
- 14- يوسف شلحت ، مرجع سبق ذكره ، ص 118، 119 .
- 15- إيفنز- برتشارد ، الاناسة المجتمعية و ديانة البدائيين في نظريات الاناسيين ، ترجمة حسن قببسي ، ط 1 ، دار الحداثة ، 1986 ، ص 231 ، 232 .
- 16- امام عبد الفتاح امام ، الاخلاق والسياسة " دراسة في فلسفة الحكم " ، المجلس الاعلى للثقافة ، دار الكتب المصرية ، 2001 ، ص 111 .
- 17- كلود ليفي شتراوس ، الأنثروبولوجيا البنيوية ، ترجمة مصطفى صالح ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، دمشق ، 1977 ، ص 282 .
- 18- _____ ، الفكر البري ، ترجمة نظير جاهل ، ط 3 ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، 2007 ، ص 87 ، 88 .
- 19- سيفموند فرويد ، مرجع سبق ذكره ، ص 24 .